الصين من ١٩٤٥ إلى الستينيات من القرن العشرين
هل كان ماوتسي تونغ مجرد إنسان مصاب بوسواس؟

على امتداد أربع سنوات، كان أمريكيون كثيرون، في مراكز رفيعة أو مغمورون، لديهم قناعة يكتنفها التجهم، بأن الحرب العالمية الثانية كانت «الحرب الخطأ ضد العدو الخطأ». كانوا يعرفون أن الشيوعية كانت الخصم الحقيقي الوحيد على الأجندة الأمريكية التاريخية. ألم يكن ذلك السبب في أن هتلر تجوهل/ تم احتماله/ تم استرضاؤه/ وجرت مساعدته؟ ألم تكن الغاية أن تتجه آلة الحرب النازية شرقاً وأن تمسح البلشفية من وجه الأرض وإلى الأبد؟ كان مجرد سوء حظ أن أدولف كان مصاباً بجنون العظمة بحيث اتجه إلى الغرب أيضاً.

ولكن تلك الحرب انتهت. آنذاك كانت أمام الأمريكيين فرصة الابتهاج بالنصر في سائر أنحاء العالم، وبالكاد كان حبر معاهدة استسلام اليابان قد جف عندما شرعت الولايات المتحدة في استخدام الجنود اليابانيين الذين لا يزالون في الصين، جنباً إلى جنب مع الجنود الأمريكيين، في جهد مشترك ضد الشيوعيين الصينيين. (في الفلبين واليونان، كما سنرى، لم تنتظر الولايات المتحدة انتهاء الحرب قبل أن تخضع الكفاح ضد اليابان وألمانيا للحملة ضد الشيوعيين).

كان الشيوعيون في الصين يعملون بتعاون وثيق مع العسكريين الأمريكيين خلال الحرب، ويقدمون لهم معلومات استخبارية هامة عن المحتلين اليابانيين، وينقذون ويعتنون بالطيارين الأمريكيين الذين أسقطت طائراتهم [١]. مهما يكن من أمر، سيبقى الجنرال يسيمو شيانغ كاي - شيك رجل واشنطن، فهو كان على رأس ما اتُّفق على أنها كانت حكومة مركزية في الصين، كان في تقدير مكتب الخدمات

الاستراتيجية (OSS الذي كان بداية تشكيل وكالة المخابرات المركزية CIA) ان معظم الجهد العسكري الذي بذله شيانغ، كان موجهاً ضد الشيوعيين بدلاً من اليابانيين. كما أنه بذل قصارى جهده لعرقلة التعاون بين الحمر والأمريكيين. أما الآن، فإن جيشه احتوى وحدات يابانية ونظام حكمه كان مليئاً بمسؤولين سبق لهم أن تعاونوا مع اليابانيين وخدموا في الحكومة العميلة التي أقاموها. مهما يكن من أمر، لقد كان الجنراليسيمو معادياً للشيوعيين إلى أقصى حد. علاوة على ذلك، كان هو عميلاً للأمريكيين بالولادة. كانت القوات التابعة له يتم تدريبها وتجهيزها لتخوض المعركة ضد رجال ماوتسي تونغ وشوان لاي.

كان الرئيس ترومان في مقدمة العاملين لما وصفه «استخدام اليابانيين لصد الشيوعيين»:

«كان واضحاً لنا تمام الوضوح أننا إذا طلبنا من اليابانيين إلقاء أسلحتهم فوراً والتوجه إلى السفن في البحر، سيستولي الشيوعيون على البلد بكامله، ولذلك كان علينا أن نقدم على خطوة غير معتادة بأن نستخدم العدو كحامية ريثما نتمكن من نقل القوات الوطنية (قوات شيانغ) جواً إلى جنوب الصين ونرسل قوات المارينز لحماية الموانىء البحرية [٣].

كانت لنشر قوات المارينز الأمريكية نتائج سريعة ودراماتيكية، بعد أسبوعين من انتهاء الحرب، كانت بكين مطوّقة بقوات شيوعية. وصول المارينز هو وحده الذي حال دون استيلاء الحمر عليها [٤] وبينما كانت قوات ماوتسي تونغ تندفع إلى ضواحي شنغهاي. أنزلت طائرات النقل الأمريكية قوات شيانغ للاستيلاء عليها [٥].

في تزاحم لاستباق الشيوعيين في الوصول إلى المراكز والموانىء المفتاحية، نقلت الولايات المتحدة ما بين ٤٠٠,٠٠٠ و٥٠٠,٠٠٠ جندي من القوات الوطنية بالسفن والطائرات مجتازين مساحات الصين ومنشوريا الشاسعة، للوصول إلى أماكن لم يكن بإمكانهم الوصول إليها بغير هذه الطريقة.

مع اشتداد الحرب الأهلية، جرى استخدام الخمسين ألفاً من جنود المارينز الذين أرسلهم ترومان، في حراسة السكك الحديدية، ومناجم الفحم، والموانىء، والجسور وغيرها من المواقع الاستراتيجية. فكان من المحتم أن يشاركوا في القتال، وتعرضوا لعشرات، إن لم يكن مئات من الإصابات. إتهم الشيوعيون القوات الأمريكية بمهاجمة المناطق الواقعة تحت إشراف الحمر مباشرة بفتح النار عليهم، واعتقلوا ضباطاً عسكريين ونزعوا أسلحة الجنود[٦]. وقد وجد الأمريكيون أنفسهم يقصفون قرية شيوعية صغيرة «بدون رحمة»، وفق ما كتب أحد جنود المارينز إلى ممثله في الكونغرس، دون أن يعلم «عدد الناس الأبرياء الذين قُتلوا» [٧].

طفقت الطائرات الأمريكية تقوم بطلعات استطلاعية فوق المنطقة الخاضعة للشيوعيين لكشف مواقع قواتهم، وادعى الشيوعيون أن الطائرات الأمريكية كثيراً ما أطلقت نيران الرشاشات وقصفت بالقنابل جنودهم، وفي إحدى المرات تعرضت بلدة تحت إشراف الشيوعيين لهجوم بالرشاشات الثقيلة[٨] ليس معروفاً إلى أي حد وصلت هجمات الطيارين الأمريكيين هذه. بيد أنه كان هناك ناجون أمريكيون في بعض الحوادث العديدة لسقوط الطائرات الأمريكية. ومن المثير للدهشة، أن الحُمر واصلوا إنقاذهم، ومعالجة جروحهم، وإعادتهم إلى القواعد الأمريكية. من الصعب الآن تقدير هذا الأمر ولكن في ذلك الحين كانت أسطورة «أمريكا» لا تزال تستحوذ على مخيلة الناس في سائر أنحاء العالم، ولم يكن الفلاحون الصينيون، سواء وُصموا أم لم يوصموا بالشيوعية، استثناء من ذلك. فخلال الحرب، ساعد الحمر في إنقاذ عشرات الطيارين الأمريكيين ونقلوهم عبر الخطوط اليابانية إلى مكان آمن. كتبت جريدة «النيويورك تايمز» ذات مرة «إن الشيوعيين لم يفقدوا طياراً واحداً صدف أنه كان تحت حمايتهم. وقد حرصوا دائماً على عدم قبول مكافآت لقاء إنقاذ الطيارين الأمريكيين [٩].

مع حلول عام ١٩٤٦ كان لا يزال في الصين حوالي ١٠٠,٠٠٠ عسكري أمريكي مستمرين في دعم شيانغ. وكان التفسير الأمريكي الرسمي لوجود هؤلاء العسكريين

هو أنهم كانوا هناك لنزع أسلحة اليابانيين وترحيلهم إلى بلادهم. ومع أن هذه المهمة نفذت فعلاً، إلا أنها كانت عملاً سياسياً ثانوياً بالنسبة للعسكريين، وهذا ما توضحه تمام الوضوح أقوال ترومان التي أوردناها أعلاه.

بدأ الجنود الأمريكيون في الصين بالاحتجاج على عدم إعادتهم إلى بلادهم، وكانت هذه شكوى لقيت صداها في سائر أنحاء العالم لدى جنود أمريكيين آخرين احتُفظ بهم في ما وراء البحار لأغراض سياسية (عادة أغراض المعاداة للشيوعية). لقد قال ملازم من قوات المارينز كان في الصين في وقت حلول عيد الميلاد عام ١٩٤٥ «إنهم يسألونني أيضاً ما سبب وجودهم هنا، وكان يفترض بي كضابط أن أبيّن لهم السبب، ولكن لم يكن ممكناً أن نقول لرجل إنه موجود هنا لنزع سلاح اليابانيين بينما هو يقوم على حراسة نفس السكة الحديدية بواسطة يابانيين مسلحين» (١٠).

ومن الغريب أن الولايات المتحدة حاولت التوسط في الحرب الأهلية بينما كانت تشارك مشاركة قوية وفعالة مع أحد الجانبين. ففي شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٦ أدرك الرئيس ترومان على ما يبدو أنه إما الوصول إلى حل وسط مع الشيوعيين أو رؤية الصين بكاملها تخضع لسيطرتهم، لذلك أرسل الجنرال جورج مارشال لكي يحاول التوصل إلى وقف لإطلاق النار وإلى حكومة ائتلافية من نوع ما غير محددة المعالم. وفي حين أن بعض النجاح المؤقت قد تحقق بواسطة هدنة متقطعة، فإن فكرة الحكومة الائتلافية كان محكوماً عليها بالإخفاق، باعتبار أنها إنجاز غير محتمل يشبه محاولة التزاوج بين القيصر والبلشفيك، ووفقاً لما نبه إليه المؤرخ د.ف. فليمنغ Fleming. F. D «لا يستطيع المرء أن يوحد بين الأقلية الحاكمة وهي على فراش الموت، وثورة ناشئة» (١١).

لم تبدأ الولايات المتحدة سحب بعض قواتها العسكرية حتى مطلع عام ١٩٤٧، ولو أن المساعدات والمساندة لحكومة شيانغ استمرتا بشكل أو بآخر لمدة طويلة بعد ذلك. وفي حوالي الوقت ذاته بدأت النمور الطائرة Flying Tigers بالعمل. هذا

السرب الجوي الأمريكي الأسطوري بقيادة الجنرال كلير شينولت Clair Chennault كان قد حارب إلى جانب الصينيين ضد اليابانيين قبل الحرب العالمية وخلالها. أما الآن فإن شينولت، المستشار السابق لشيانغ لشؤون سلاح الجو، كان قد أعاد تفعيل السرب (تحت اسم كات CAT) وما لبث طيارو هذا السرب أن وجدوا أنفسهم في قلب العمل الشاق، إذ كانوا يقومون برحلات جوية لا نهاية لها لنقل تموينات إلى المدن التي يحكمها الوطنيون والواقعة تحت الحصار، وكانوا أيضاً يخترقون انفجارات القنابل الشيوعية من أجل أن ينقلوا الطعام والذخيرة ومؤناً مختلفة، أو لإنقاذ الجرحى [١٢] من الناحية الفنية كانت (كات) عبارة عن خط جوي خاص استأجرته حكومة شيانغ، لكن قبل انتهاء الحرب الأهلية توحد هذا الخط الجوي رسمياً مع وكالة المخابرات المركزية ليصبح أول وحدة في الامبراطورية الجوية التابعة للوكالة التي كانت في طور التكوّن، والتي عرفت فيما بعد باسم الخط الجوي الأمريكي Air America Line.

في عام ١٩٤٩ بلغت قيمة مساعدة الولايات المتحدة إلى الوطنيين في الصين منذ بداية الحرب نحو بليوني دولار نقداً وبليون دولار قيمة معدات عسكرية، بواسطتهما تم تدريب وتجهيز ٣٩ فرقة في الجيش الوطني [١٣]. مع ذلك فإن سلالة شيانغ كانت في طور الإنهيار الكامل والتفتت. لم يكن السبب فقط الهجوم الذي يشنه أعداء شيانغ الشيوعيون، بل يعود السبب أيضاً إلى الموقف العدائي من جانب الشعب الصيني بصورة عامة لطغيانه، وقسوته المتعمدة، والفساد والتعفن في سائر نظامه الاجتماعي والبيروقراطي. في المقابل، كانت المناطق الكبيرة التي تحت الإدارة الشيوعية، تعتبر نماذج من الصدق والتقدم والعدل، وبالتالي، فإن فرقاً بكاملها من قوات الجنراليسيمو انشقت عنه وانحازت إلى الشيوعيين. ولم يكن لدى القادة الأمريكيين السياسيين والعسكريين أية أوهام حول طبيعة ونوعية حكم شيانغ. وقد قال الجنرال ديفيد بار David Barr رئيس البعثة العسكرية في الصين، إن القوات الوطنية كانت خاضعة «لأسوأ قيادة عرفها العالم» [١٤].

لقد هرب الجنرال يسيمو وأتباعه وجنوده إلى جزيرة تايوان (فورموزا) القريبة من الساحل. سبق لهم أن أعدّوا لدخولهم الجزيرة قبل ذلك بعامين بواسطة ترويع سكان الجزيرة لحملهم على الخضوع في مجزرة أودت بأرواح ما لا يقل عن ٢٨,٠٠٠ شخص [١٥] قبل هرب الوطنيين إلى الجزيرة، لم يراود حكومة الولايات المتحدة أي شك في أن تايوان جزء من الصين. بعد ذلك، بدأت الشكوك تزحف إلى أذهان المسؤولين في واشنطن. أما حل الأزمة فقد تم بطريقة بسيطة تلفت الانتباه: اتفقت الولايات المتحدة مع شيانغ على أن الطريقة المناسبة لرؤية هذا الوضع هي أن لا يقال إن تايوان تابعة للصين، بل ان تايوان هي الصين. وهكذا جرت تسميتها.

في خضم النجاح الشيوعي، قال فليكس غرين Felix Green الباحث في شؤون الصين «إن الأمريكيين، ببساطة، لم يتكيفوا مع التصديق بأن الصينيين، مهما كانت قيادتهم عفنة، يفضلون عليها حكومة شيوعية» [١٦] كان التفسير أن هذا حتماً من صنع مؤامرة، مؤامرة دولية، يحركها ويشرف عليها، وهذا ليس بالأمر غير المتوقع، الاتحاد السوفييتي. بيد أن الدليل إلى ذلك كان ضعيفاً إلى درجة الشفافية. والحقيقة هي أنه منذ تفوق عقيدة ستالين القائلة ان «الاشتراكية في بلد واحد» على قول تروتسكي Trotsky بدولية الاشتراكية في العشرينيات من القرن العشرين، وقف الروس إلى جانب شيانغ أكثر من وقوفهم إلى جانب ماوتسي تونغ، بل إنهم نصحوا ماو أكثر من مرة بأن يحلّ جيشه وأن ينضم إلى حكومة شيانغ [١٧] ولاسيما في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما واجه الاتحاد السوفييتي أزمة في إعادة البناء المتعثرة، لم يستهوِه احتمال أن يضطر إلى انتشال الدولة الأكثر سكاناً في العالم لإدخالها في العصر الحديث. وفي عام ١٩٤٧ قال الجنرال مارشال علناً إنه ليس لديه أي دليل إلى أن الشيوعيين الصينيين يلقون مساندة من الاتحاد السوفييتي [١٨].

ولكن ذلك لم يمنع نشوء أسطورة كاملة في الولايات المتحدة عن كيفية «خسارة» الولايات المتحدة للصين: الأسطورة عزت هذه الخسارة إلى التدخل السوفييتي، وإلى

الشيوعيين في وزارة الخارجية الأمريكية، وإلى الجبناء في البيت الأبيض، وإلى الحماقة العسكرية والدبلوماسية، وإلى المخدوعين بالشيوعيين ومن هم على شاكلتهم في وسائط الإعلام - أي خيانة في كل مكان..

لقد قال السناتور جوزيف ماكارثي بعبارات ساخرة متميزة، إن إدارة ترومان كانت مؤلفة من «ليبراليين مزيفين يمتصون البيض» ويسبغون الحماية على الشيوعيين والشاذين» الذين «باعوا الصين إلى عبودية الإلحاد» [١٩].

مع ذلك، كان من العسير أن يرى المرء، دون الإقدام على غزو شامل للصين من قبل أعداد كبيرة من الجنود الأمريكيين، ما الذي كان باستطاعة الولايات المتحدة أن تفعله زيادة عما فعلته لتحول دون سقوط شيانغ. وحتى بعد هرب شيانغ إلى تايوان، تابعت الولايات المتحدة حملة لا هوادة فيها ضد الحكومة الشيوعية، بالرغم من تلقيها طلباً من شوان لاي للمساعدة والصداقة. إن هذا الزعيم الأحمر لم يكن يرى أي مانع عملي أو أيديولوجي أمام ذلك [٢٠] بدلاً من ذلك، كان جلياً أن الولايات المتحدة تآمرت لاغتيال شوان لاي في مناسبات عديدة [٢١].

لقد لجأ كثيرون من الجنود الوطنيين إلى شمال بورما في الخروج الكبير عام ١٩٤٩، وهذا ما أزعج كثيراً حكومة بورما. هناك شرعت وكالة المخابرات المركزية في إعادة تجميع هذا الجيش الذي لا ينتمي إلى دولة لتجعل منه قوة مقاتلة، وخلال الخمسينيات من القرن العشرين حدث عدد من الغارات على الصين، منها ما هي واسعة النطاق أو صغيرة النطاق. وفي إحدى المرات، وكان ذلك في شهر نيسان (ابريل)، عام ١٩٥١، اجتاز الحدود إلى الصين في مقاطعة يونان، بضعة آلاف من الجنود، يرافقهم مستشارون من وكالة المخابرات المركزية، وجرى تموينهم من الجو بواسطة طائرات أمريكية من طراز (C46) و(C47)، ولكن الشيوعيين ردّوهم على أعقابهم في أقل من أسبوع. كانت الإصابات في صفوفهم كبيرة وشملت العديد من مستشاري وكالة المخابرات المركزية الذين لاقوا حتفهم. كانت هناك غارة أخرى في صيف ذلك العام وصل خلالها الغزاة إلى عمق ٦,٥ أميال داخل الصين، حيث قيل إنهم سيطروا على قطعة من الأرض طولها مئة ميل.

وبينما استمرت الهجمات متقطّعة، انطلقت وكالة المخابرات المركزية في عملية بناء قدرات القوات المسلحة. وصل مهندسون أمريكيون للمساعدة في بناء وتوسيع مهابط الطائرات في بورما، ونُقل جواً من تايوان جنود جدد، وجرى تجنيد جنود آخرين من أبناء قبائل التلال في بورما، وجيء بأسراب جوية تابعة لوكالة المخابرات المركزية للقيام بالخدمات اللوجستية، وتم نقل كميات هائلة من الأسلحة الثقيلة الأمريكية عن طريق البحر. إن كثيرين من الرجال وأعداداً كبيرة من المعدات نقلوا عبر تايلاند المجاورة.

ما لبث عديد الجيش أن توقف عند الرقم ١٠,٠٠٠ رجل. مع نهاية عام ١٩٥٢، ادعت تايوان أن ٤١,٠٠٠ جندي شيوعي قتلوا وأكثر من ٣,٠٠٠ جرحوا. من المرجح أن هذه أرقام مبالغ فيها، وحتى لو لم تكن كذلك، فقد كان واضحاً أن الغارات لن تؤدي إلى عودة شيانغ المظفرة إلى البّر الصيني الرئيس، مع أن هذه العودة لم تكن الغاية الوحيدة للغارات. كانت هناك معركتان كبريان تحتدمان على حدود الصين: إحداهما في كوريا والأخرى في فيتنام. كان أمل الولايات المتحدة أن تتمكن من إرغام الصينيين على إبعاد جنودهم ومواردهم العسكرية عن هاتين المنطقتين. لقد كانت جمهورية الصين الشعبية الفتيّة تجتاز اختباراً رهيباً.

بين غارة وأخرى على الصين، وجد «الشينات Chinats» (وهم يختلفون عن الشيكوم Chicoms) الوقت للاشتباك تكراراً مع الجنود البورميين، وارتكاب أعمال السلب والنهب، وأن يصبحوا سادة الأفيون في المثلث الذهبي، تلك القطعة من الأرض التي تضم أجزاء من بورما، ولاووس، وتايلاند، والتي كانت أكبر مصدر في العالم للأفيون والهيروين، وقام طيارو وكالة المخابرات المركزية بنقل هذه المخدرات إلى أماكن متعددة لتأمين التعاون من قبل أولئك الذين في تايلاند لأنهم كانوا على قدر من الأهمية للعملية العسكرية، كمعروف يقدمونه لزبائنهم الوطنيين، وربما من أجل المال أيضاً وكذلك - وهذا ما يدعو للسخرية - للتستر على أنشطتهم الأكثر خروجاً على الشرعية.

ظل الشينات في بورما يضايقون الشيكوم حتى عام ١٩٦١ وظلت وكالة المخابرات المركزيّة تزوّدهم بالمساعدات العسكرية، ولكنّ الوكالة بدأت عند حدّ ما تنأى بنفسها تدريجياً عن التدخل الأكثر مباشرة. وعندما مارست وكالة المخابرات المركزية، استجابة للاحتجاجات المتكررة التي قدمتها حكومة بورما إلى الولايات المتحدة والأمم المتحدة، الضغط على الشينات لمغادرة بورما، كان رد شيانغ على ذلك بالتهديد بأن يفضح مساندة الوكالة السرية لقواته هناك. وكانت وكالة المخابرات المركزّية، في مرحلة سابقة، قد راودها الأمل في إمكانية استفزاز الصينيين بحيث يهاجمون بورما، وبهذه الطريقة يمكن إرغام بورما الملتزمة الحياد التزاماً شديداً، على نشدان الخلاص في المعسكر الغربي [٢٢]. في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ كان هذا تماماً ما فعله الصينيون، ولكن كقوة مشتركة مع البورميين للسيطرة على قاعدة الوطنيين الرئيسية وتسجيل ختام لمغامرتهم في بورما. على إثر ذلك، تخلت بورما عن المساعدة الأمريكيّة وتقاربت أكثر مع بكين [٢٣]. بالنسبة لكثيرين من الشينات، لم تدم البطالة طويلاً، ذلك أنهم ما لبثوا أن تعاقدوا مرة أخرى مع وكالة المخابرات المركزية، للقتال هذه المرة مع جيش الوكالة الكبير في لاووس.

لم تكن بورما الموقّع الوحيد لانطلاق الغارات التي تنظمها وكالة المخابرات المركزيّة على الصين. كانت هناك جزر عديدة تبعد عن السّاحل الصيني نحو خمسة أميال، وخاصة جزيرة كيموي Quemoy وجزيرة ماتسو Matsu، استخدمت كقواعد لشن هجمات كرٍّ وفر، غالباً بقوة فوج battalion، وللقيام بحملات قصف، ومحاصرة موانىء البر الرئيسي، مارست الولايات المتحدة «ضغطاً وحشياً» على شيانغ لبناء قواته على الجزر بدءاً من حوالي عام ١٩٥٣ كبرهان على سياسة واشنطن الجديدة الرامية إلى «إطلاقه» [٢٤].

ردَّ الصينيون مرات عديدة بهجمات مدفعية ثقيلة على جزيرة كيموي، وفي إحدى المرّات تسببوا بمقتل ضابطين أمريكيين. إن احتمال تصعيد الحرب حمل الولايات المتحدة على إعادة النظر طالبة من شيانغ أن يتخلى عن الجزر، ولكنّه

رفض في ذلك الحين. لقد قيل مراراً إن شيانغ كان قد وضع خطته لزجِّ الولايات المتحدة في حرب من هذا القبيل باعتبار أن تلك هي وسيلته الوحيدة للعودة إلى البِّر الصيني الرئيسي[٢٥].

نُفذت غارات عديدة على الصّين بواسطة وحدات أصغر من قوات الكوماندو التي أنزلت من الطائرات للقيام بأعمال الاستخبارات والتخريب. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ أُسقطت طائرة ضابطين من ضباط وكالة المخابرات المركزيّة، هما جون داوني John Downay وريتشارد فيكتو Richard Fecteau اللذين سبق لهما أن شاركا في نقل هذه الوحدات جواً وإسقاط مؤن لها، فأسرهما الشيوعيون. مرت سنتان قبل أن تعلن بكين عن سقوطهما في الأسر وإصدار حكم عليهما. أما الإدارة الخارجية الأمريكية فقد أنهت التزامها الصّمت مدة سنتين بالتعبير عن غضبها، وادّعت أن الرّجلين كانا موظّفين مدنيّين في وزارة الجيش الأمريكية في اليابان، وكان مفترضاً أنهما فُقدا خلال طيرإنهما من كوريا إلى اليابان. «ليس لدى الولايات المتحدة علم بكيفية وقوع الرجلين في أيدي الشيوعيين الصينيين.. إن استمرار احتجاز هذين المدنيين الأمريكيين بصورة غير شرعية يوفر برهاناً آخر على عدم احترام نظام الحكم الصيني الشيوعي للأعراف المقبولة في السلوك الدولي» [٢٦].

أُفرج عن فيكتو في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١ قبيل رحلة الرئيس نيكسون إلى الصين، أما داوني فلم يفرج عنه حتى شهر آذار (مارس) ١٩٧٣، بُعيد اعتراف نيكسون العلني بأنه ضابط في وكالة المخابرات المركزية.

صدر إعلان في بكين في عام ١٩٥٤ كشف عن إسقاط أحد عشر طياراً أمريكياً فوق الصين في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، عندما كانوا في مهمة هدفها «إنزال عملاء خاصين في أراضي الصين والاتحاد السوفييتي»، كان هؤلاء الرجال أحسن حظاً، إذ أفرج عنهم بعد عامين ونصف العام. في إحصاء عام قال الصينيون إنهم قتلوا ١٠٦ عملاء أمريكيين وتايوانيين نزلوا بالمظلات في الصين بين العامين ١٩٥١ و١٩٥٤ وأسروا ١٢٤ آخرين. ومع أن وكالة المخابرات المركزية لم يكن عندها

ما تقوله عن نجاح عمليات الكوماندو التي نفذتها، فقد حافظت على البرنامج حتى عام ١٩٦٠ على أقل تقدير [٢٧].

نفذت وكالة المخابرات المركزية عمليات طيران عديدة أخرى فوق الصين لأغراض التجسس، بواسطة طائرات (يو تو U - ٢) التي تحلق على ارتفاع كبير، وبواسطة طائرات بدون طيار، وطائرات أخرى. بدأت عمليات الطيران هذه حوالي أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ولم تتوقف حتى عام ١٩٧١، ليتوافق توقفها مع زيارة هنري كيسنجر الأولى إلى بكين، ولم تمر هذه العملية بدون وقوع حوادث. لقد تم إسقاط العديد من طائرات (يو تو) وإسقاط عدد أكبر من الطائرات بدون طيار، وبحسب الأرقام الصينية تم إسقاط ١٩ من هذه الطائرات بدون طيار في المدة بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٩، وسجلت الصين مئات «التحذيرات الجدية» من انتهاك أجوائها، وفي إحدى المرات على أقل تقدير عبرت طائرة أمريكية الحدود الصينية وأسقطت طائرة من طراز (ميغ ١٧ migh17) [٢٨].

يبدو لنا أن أية درجة من الفشل أو ضعف النتائج كانت كافية لردع وكالة المخابرات المركزية عن التماس طرق جديدة لتعذيب الصينيين خلال العقد من الستين بعد ثورتهم. كانت التيبت قضية أخرى ذات علاقة بالموضوع، لقد ادعت حكومة بكين أن التيبت جزء من الصين، وهذا ما كانت قد ادعته حكومات صينية سابقة على مدى أكثر من قرنين، مع أن كثيرين من سكان التيبت كانوا يعتبرون أنفسهم متمتعين بحكم ذاتي أو باستقلال. لقد أوضحت الولايات المتحدة موقفها خلال الحرب:

«لقد أخذت حكومة الولايات المتحدة بعين الاعتبار حقيقة أن الحكومة الصينية ادعت منذ زمن طويل أن لها الولاية على التيبت وأن الدستور الصيني يورد التيبت بين المناطق التي تشكل أراضي جمهورية الصين. إن هذه الحكومة لم يسبق أن أثارت في أي وقت تساؤلاً إزاء أي من هذه الادعاءات» [٢٩].

بعد الثورة الشيوعية كان ميل المسؤولين في واشنطن إلى اتخاذ موقف أكثر التباساً في هذا الشأن. ولكن إجراءات الولايات المتحدة ضدَّ التيبت لم تكن لها أية علاقة بالمجاملات التي يقتضيها القانون الدولي.

في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين بدأت وكالة المخابرات المركزية بتجنيد لاجئين من أبناء التيبت، وآخرين منهم يعيشون في المنفى في بلدان مجاورة كالهند ونيبال. من مجموع هؤلاء كان أعضاء من حرس الدالاي لاما، الذين كان يشار إليهم على سبيل إعطاء صورة رائعة عنهم بصفتهم «فرسان خامبا المرهوبين»، إضافة إلى آخرين ممن شاركوا في بعض نشاط حرب العصابات ضد حكم بكين و/أو ضد التغييرات الاجتماعية العميقة التي نفذتها الثورة (كانت عبودية الفلاحين والرقيق لا تزالان سائدتين فعلاً في التيبت). والذين كان يقع عليهم الاختيار كانوا ينقلون جواً إلى الولايات المتحدة، إلى قاعدة عسكرية غير مستخدمة في أعالي جبال كولورادو، أي على ارتفاع يقارب ارتفاع الجبال في وطنهم. هناك، وخفيةً قدر الإمكان عن السكان المحليين، كان يجري تدريبهم على أصول حرب العصابات.

بعد انتهاء التدريب، كانت كل مجموعة من هؤلاء (أبناء التيبت) تنقل جواً إلى تايوان أو إلى بلد صديق آخر في آسيا، ومن هناك يتم تسللهم إلى التيبت، أو إلى مكان آخر في الصين، حيث ينشطون في أعمال تخريبية، وزرع الألغام على الطرق، وقطع خطوط الاتصالات، ونصب كمائن لقوات شيوعية صغيرة. وكانت أعمالهم تلقى الدعم من طائرات وكالة المخابرات المركزية وأحياناً يتولى قيادتهم مرتزقة تعاقدت معهم الوكالة. وأقيمت منشآت دعم واسعة في شمال شرق الهند.

هذه العملية في كولورادو استمرت حتى وقت ما في الستينيات من القرن العشرين. قد لا نعلم إطلاقاً كم من مئات أبناء التيبت الذين اجتازوا التدريب. وحتى عندما انتهى برنامج التدريب، واصلت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تمويل وتموين عملائها الغرباء وحاولت أن تحي في نفوسهم الحلم الذي لا أمل في تحقيقه، حلم استعادة البر الصيني الرئيسي.

في عام ١٩٦١، عندما علمت جريدة «نيويورك تايمز» بعملية كولورادو، وافقت على طلب من البنتاغون بالكفِّ عن متابعة الموضوع [٣٠] كانت هذه المسألة حساسة بصورة خاصة لأن ميثاق وكالة المخابرات المركزية لعام ١٩٤٧ وتفسير الكونغرس لهذا الميثاق كانا تقليديان يحصران عمليات الوكالة في الداخل بجمع المعلومات.

علاوة على أعمال إزعاج الصين بالذات، كان هناك امتداد الحرب الكورية إلى داخل الأراضي الصينية، العديد من غارات الطائرات الأمريكية التي حسب التقارير الصينية، أودت بأرواح المدنيين ودمرت البيوت. ثم كانت هناك مسألة الحرب الجرثومية.

كرّس الصينيون جانباً كبيراً من جهدهم لنشر ادعائهم بأن الولايات المتحدة، وخاصة في المدة من كانون الثاني (يناير) إلى آذار (مارس) ١٩٥٢ ألقت كميات من الجراثيم والحشرات حاملة الجراثيم على كوريا وشمال شرق الصين، وعرضت في هذا الشأن شهادات نحو ٣٨ طياراً أمريكياً وقعوا في الأسر بعد أن قادوا الطائرات المحملة بالمواد المميتة. كثيرون من هؤلاء الرجال قدموا تفصيلات كبيرة عن كامل العملية: أنواع القنابل والحاويات الأخرى التي ألقيت من الجو، أنواع الحشرات، الأمراض التي تنقلها هذه الحشرات، إلخ. وفي الوقت ذاته نشرت صور القنابل الجرثومية والحشرات المزعومة. ثم، في شهر آب (أوغسطس) شكلت «لجنة علمية دولية» مؤلفة من عملاء ينتمون إلى السويد، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، وإيطاليا، والبرازيل والاتحاد السوفييتي، وبعد أعمال التحقيق التي جرت في الصين على مدى أكثر من شهرين، أصدرت اللجنة تقريراً من نحو ٦٠٠ صفحة، مرفقاً بالعديد من الصور، خلاصته أن:

«شعب كوريا وشعب الصين كانا هدفين لأسلحة جرثومية، هذه الأسلحة استخدمت من قبل وحدات من القوات المسلحة الأمريكية، التي استخدمت أساليب مختلفة ومتنوعة لهذه الغاية، بعضها بدا أنه تطوير لبعض الأسلحة التي استخدمها اليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية» [٣١].

الإشارة الأخيرة تتعلق بتجارب الحرب الجرثومية التي نفذها اليابانيون ضد الصين بين العامين ١٩٤٠ و١٩٤٢. وقد ألقت الولايات المتحدة القبض في عام ١٩٤٥ على العلماء اليابانيين المسؤولين عن هذا البرنامج، ومنحوا حصانة ضد الإعدام مقابل تزويد علماء أمريكيين من مركز الأبحاث البيولوجية التابع للجيش الأمريكي في فورت دتريك، بولاية ماريلاند، بالمعلومات الفنية عن التجارب اليابانية، وكان الصينيون قد علموا بذلك في أثناء التحقيق الذي أجرته اللجنة العلمية الدولية [٣٢].

لابد من ملاحظة أن بعض أقوال الطيارين الأمريكيين تضمن الكثير من المعلومات البيولوجية الفنية وكان محشواً بتعابير شيوعية - «امبريالية، دعاة الحرب من رأسماليي وول ستريت» وما شابه ذلك - مما يفترض الشك جدياً بأنهم فعلاً أصحاب هذه الأقوال. علاوة على ذلك، تبين لاحقاً أن معظم الطيارين أدلوا باعترافاتهم فقط بعد تعرضهم لإساءة معاملة جسدية[٣٣].

ولكن نظراً لما علمنا عن تورط الأمريكيين في استخدام أسلحة كيميائية وبيولوجية، فإنه لا يمكن رفض الادعاءات الصينية مباشرة. على سبيل المثال، ذكرت جريدة «نيويورك تايمز» في عام ١٩٧٠، أنه خلال الحرب الكورية، عندما كانت «الموجات البشرية» الصينية متفوقة على القوات الأمريكية «نبش الجيش الأمريكي في وثائق استولى عليها تتعلق بالحرب النازية الكيميائية، وصفاً لغاز السارين، وهو غاز أعصاب قاتل تكفي بضعة باوندات منه لقتل آلاف الناس خلال دقائق.. ومع حلول منتصف التسعينيات من القرن العشرين، كان الجيش الأمريكي يصنع آلاف الغالونات من غاز السارين»[٣٤].

ثم إن الجيش الأمريكي ووكالة المخابرات المركزية أجريا خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تجارب عديدة على العوامل البيولوجية داخل الولايات المتحدة. نأتي هنا على ذكر مثالين فقط: في عام ١٩٥٥، هنالك بينة قوية على إطلاق وكالة المخابرات المركزية بكتيريا السعال الديكي في أجواء ولاية فلوريدا،

وتبعت ذلك زيادة حادة في حالات هذا المرض في الولاية خلال ذلك العام [٣٥] وفي العام التالي نشرت مادة سامة أخرى في شوارع وأنفاق مدينة نيويورك [٣٦] وسنرى في الفصل الخاص بكوبا من هذا الكتاب كيف شنت وكالة المخابرات المركزية حرباً كيميائية وبيولوجية على حكم فيدل كاسترو.

في آذار (مارس) عام ١٩٦٦، تحدث وزير الخارجية الأمريكي دين راسك Dean Rusk أمام إحدى لجان الكونغرس عن السياسة الأمريكية تجاه الصين. يبدو أن السيد راسك كان مرتبكاً لأن «القادة الصينيين الشيوعيين بدا أنهم كانوا مهووسين بفكرة أنهم يتعرضون للتهديد والمحاصرة». وهو تحدث عن فكرة الصين «الخيالية والطبية القائلة إن الولايات المتحدة وبلداناً أخرى محيطة بحدود الصين تتحين فرصة لغزو السبر الصيني الرئيسي وتدمير نظام حكم بيبينغ Peiping (بكين)». ثم أضاف:

«لا أحد غير القادة الشيوعيين الصينيين يعرف مدى صحة «خوف» بيبينغ من الولايات المتحدة ومدى كونه مختلقاً لأغراض سياسية داخلية. بيد أني مقتنع بأن الدافع إلى رغبتهم في إبعاد نفوذنا ونشاطنا عن غرب المحيط الهادي وجنوب شرق آسيا ليست المخاوف من تهديدنا لهم» [٣٨].